كارلو نلينو

المستشرق الكبير

لمحة تاريخية يستدل منها على مدى تعمقه في العلوم عند العرب، وبنوع خاص في الجغرافية والهيئة وآداب اللغة والفقه

للأستاذ يوسف الخوري

في يوم صافي الأديم من عام ١٩٠٩ أطل على إدارة مجلة الهلال الزاهرة بغية التعرف على إحدى أمهات المجلات العربية في مصر شاب إيطالي حسن المندام وسيم المحيا يشع من عينيه بريق الذكاء وتم على رزانته لحية شقراء تعبث بها أصابع ارستقراطية. وما وقف بباب غرفة رئيس التحرير حتى رفع قبعته مسلماً وانحنى بتأدب محيياً بعبارة عربية لا عجمة فيها ولا لكنة، هي: «السلام عليكم يا سادتي الكرام»

وما سمع الحاضرون هذه التحية العربية الخالصة حتى تولتهم الدهشة ووقفوا إجلالاً لها ولملقيها وهم يكادون لا يصدقون أنهم أمام أجنبي ينطق بلسانهم بفصاحة العرب الأقحاح.

أما هذا الزائر الشاب المتكلم بالعربية كأحد أبنائها فلم يكن سوى الأستاذ كارلو نلينو الذي أم القاهرة بطلب من الجامعة المصرية لكي يدرس فيها باللغة العربية تاريخ علم الفلك عند العرب.

ولم يكن تلامذة الجامعة أقل إعجاباً بفصاحة أستاذهم الأوروبي وسعة اطلاعه طيلة المدة التي قام فيها على تدريسهم حتى أواخر عام ١٩١٢، كما تعداهم الإعجاب عينه إلى الجماهير، لا في مصر وحدها بل في سورية ولبنان والبلدان العربية أيضاً حتى ليبيا وطرابلس وتونس الخضراء والجزائر والمغرب وكل البلدان التي أسعد الحظ رجالها وعلماءها بالتعرف إلى هذا العالم الكبير والمستعرب النادر المثال الذي طاف بكل هذه البلدان بعد أن سبقته إليها شهرته وتآليفه فكان في كل مكان حله وكل مجلس ضمه موضع تقدير أهل العلم، لا لحسن نطقه وطلاقة لسانه في العربية فحسب، بل لسعة معارفه. ولا بدع فهو المستعرب الفذ الذي ملك ناصية اللغة وتعمق في دراستها وتمكن من تاريخ العرب وآدابهم وحضارتهم وكل فرع من فروع اجتهادهم العلمي غير تارك شاردة ولا واردة من فقه أو لغة أو نحو أو حساب أو فلسفة أو تاريخ أو هيئة حتى بلغ الغاية فيه على شكل لم يتأت لأي واحد من المستشرقين الذين تقدموه أو خلفوه.

وكل من يدرس تاريخ هذا البحاثة المجاهد في حقل العربية دون كلل ولا ملل يرى أنه تعشق العربية والأبحاث الشرقية منذ حداثته وبرع في هذه الدراسات حدثاً ويافعاً حتى توصل في كهولته إلى التسيطر الفكري على كل ما يتعلق بهذه العلوم فأصبحت له الكلمة العليا بين المستشرقين وقوله هو القول الفصل في كل نواحي الفكر العربي من حضارة وتاريخ في الجاهلية والإسلام لغة ولهجات وقبائل وعادات وأدياناً ونحلا وسياسة وفلسفة واجتماعاً، حتى إن المرء ليعجب كيف أن قوى رجل واحد وحياة واحدة تكفي لاستيعاب كل ما تقدم، إلى جنب إنتاج خصب امتاز بالدقة والتحقيق ومعرفة تامة بالنصوص على تسام في القصد وتنزه عن الهوى. فعمل الأستاذ نلينو ونتاجه العلمي رفعاه إلى مرتبة سامية بين كبار المستشرقين مثل (سنوك هورجرنيه) الهولاندي، وجولد زيهر المجري، ونولدك وولهوزن وريت.

وقد أسعدني الحظ بالحصول على جل مؤلفات هذا المستعرب الأكل الذي ظل يخدم العربية والشرق حتى الرمق الأخير فأحببت أن ألخص سيرته لكي يرى كل عربي رأي العين كم نحن مدينون له ولأمثاله من المستشرقين، إذ هم الذين كشفوا لنا مسميات تاريخنا ولغتنا لسلنا نقتفي إثرهم فنعمل بمثل جدهم ونشاطهم وتفانيهم على إحياء التراث المجيد الذي خلفه لنا أجدادنا فأهملوه ورثوه الشرعيون وحفل به الغرباء.

١

ولد كارلو نلينو في تورين عام ١٨٧٢ وفيها تلقى دروسه الابتدائية والثانوية وتعشق منذ حداثته علم تقويم البلدان وأكب على مطالعة كتب الرحلات. وطالما حدثته نفسه كالكثيرين من أنداده باقتعاد غارب الأسفار واكتشاف المجاهل، ولكن حلمه هذا لم يتحقق، وكان شأنه شأن الكثيرين سواء ممن امتطوا متن الخيال صغاراً وكبابهم كباراً. على أن إخفاقه كان أجدى عليه

فازداد انصباباً على الدرس وتقصي آثار أصحاب الرحلات وأخبارهم وأوصاف البلدان التي أموها حتى استخلص منها وهو بعد في سن الفتوة خريطة لأوساط أفريقيا ومجاهلها .

ولم يكن شغفه باللغات الأجنبية دون شغفه بعلم الجغرافية . وشعر بميل خاص إلى اللغة العربية لانتشارها في بلدان كثيرة من قارتي آسيا وأفريقيا فأكب على دراستها في مجموعة عربية وقمت له في مكتبة بلدية أودينى . ولما تبين ذووه رغبته هذه أهدوا اليه أجرومية في العربية الدارجة ألفها بالإيطالية جوزبه سابيتو . وكان مؤلف ذلك الكتاب مرسلا وجغرافيا معاً طاف بلاد الحبشة والمستعمرات الإيطالية الواقعة على البحر الأحمر وعلم العربية في مدرسة فيرنزة العالية ثم في جنوى برغم أنه كان أعرف بالعربية العامية منه بالفصحى . ولكن الشاب نلينو استعان بهذا الكتاب السقيم كما استعان بغيره من الكتب التي كانت تصل إليها يده حتى قطع بكده وثاقب فكره شوطاً بعيداً في معرفة اللغة العربية وأصبح قادراً على تفهم النصوص الصعبة قبل أن تفتح له الجامعة أبوابها .

وبينما كان مكباً على درس العربية عكف على دراسة اختيها السريانية والعبرية اللتين تعمق فيهما تعمقه في العربية .

وفي سنة ١٨٩٩ رشح نفسه لدخول فرع الآداب في كلية تورينو لوجود كرسي فيها للدروس الشرقية يتولاها مالان شهيران أحدهما ايطالو بيزي الذي لم يحل تخصصه في الدروس الفارسية دون إلمامه بالعربية إلى حد أن أصدر مؤلفا في آدابها . وعلى يده تضلع نلينو من العربية وظل حياته كلها حافظاً جميله . على أن ميله للابحاث الجغرافية كان يحفزه للتتلمذ على أحد أساتذة هذا العلم المشهورين بتفوقهم وهو جويدى كوراصاحب مجلة الكوزموس العلمية وأستاذ الجغرافية في كلية تورينو ثم في كلية روما .

وكانت باكورة ميله المزدوج إلى العلوم العربية وعلم الجغرافية إصداره في العام الأخير من دراسته أول تأليف في هذه الابحاث نشره لأستاذه جويدى في مجلته تحت هذا العنوان : « قياس العرب درجة من قوس نصف النهار وتعديلها بالقياس المترى » وفي مستهل المقال يخبرنا أنه فرغ من تأليفه سنة ١٨٩٠ ولكن نشره تأخر عامين بسبب اضطراره إلى الإقامة في مونا كو لفحص المخطوطات العربية في مكتبتها الملكية وإعداد برنامج استغرق عمله فيه بضعة أشهر . وفي هذه الرواية ما يدل على مبلغ تضلع هذا الفتى من العربية إلى حد أن يطالع وينتقد من نصوصها ما يتعذر فهمه حتى على المحنكين في حين أنه لم يكن إذ ذاك قد جاوز الثامنة عشرة .

وهذه الباكورة الناضجة من تآليف نالينو نمت برغبته في التخصص في الأبحاث الجغرافية والفلكية وما إليها عند العرب . وقد خصص لهذا القصد عدة مقالات نشرها في مجلة الكوزموس، منها مقالة ضافية في خمسين صفحة كبيرة ذات أهمية بالغة في تاريخ الجغرافية عنونها : « الخوارزمي وتجديد جغرافية بطليموس عند العرب » وذلك على إثر تناوله بالدرس العميق الدقيق نسخة خطية وحيدة عثر عليها في مكتبة ستراسبورغ من كتاب صورة الأرض للخوارزمي . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدقة في البحث وحرية النقد كانتا ألوفتين على الأخص في زمن المأمون في حين أن العرب كانوا يومئذ في بدء نشأتهم العلمية ولبطليموس عندهم منزلة رفيعة تحيط اسمه بهالة من الإجلال والاحترام ، لا بل إنهم كانوا ينظرون إلى علمه ومعارفه الفلكية نظرهم إلى الخوارق أو الأعاجيب .

وفي هذه المقالة كما في ما كتبه سواها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين أظهر نالينو من المقدرة العلمية في الحساب والهيئة وقراءة المخطوطات العويصة ما حدا المالين سكيابارللي — المستعرب منها والفلكي — إلى تحميله سنة ١٨٩٤ مسؤولية استبهظها علماء طائر والصيت يفوقونه سناً هي إشرافه على طبع أجل المخطوطات العربية في علم الفلك وهو كتاب الزيج الصابئي للبتاني ومؤلفه أبو عبد الله محمد بن ثابت بن سنان بن جابر الحراني أزهر في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر إبان بلوغ الحضارة العربية أوج مجدها . وكتابه أس من أسس علم الهيئة لا عند العرب فحسب بل في الغرب أيضا حيث ترجم إلى اللاتينية وانتشر واشتهر حتى أصبح الدستور الذي تمشى عليه هذا العلم في أوروبا المسيحية حتى عهد البعث أو التجديد . ولم تأفل شمسه إلا بعد تغلب نظرية كوبرنيكوس على معتقد الفلكيين الأقدمين .

وأقبل نالينو بملء الارتياح على هذا العمل وهو أعلم الناس بما سيعترض سبيله من المشاق فتوجه سنة ١٨٩٤ إلى مدريد لكي

يطلع على النسخة الوحيدة المعروفة لهذا الكتاب فى مكتبة الأسكوريال . ولكنه ما عتم أن رجع إلى نابولى لكى يمهد لقيامه بتلك المهمة على الوجه الأكمل، وذلك بدخوله كليتها الجامعة لكى يدرس فيها أصول علم الفلك فيعد نفسه لمجابهة المشاكل التى لا بد أن تعرض له فى كتابه هذا خصوصاً ما استعصى منها فى جداول أبعاد النجوم وحركات الكواكب المتحيرة التى تؤلف معظم الكتاب وهى أصعب قسم فيه . ولكى يتمكن من تصحيح ما ارتكبه النساخ من إخلال وتحريف أجهد نفسه فى تحقيق كل العمليات الحسابية التى بنيت عليها أبعاد النجوم وتثبت من أرقامها المشيرة إلى كل نجم بمفرده . ولم يكتف من علم الهيئة بالنظريات بل اقتفى إثر العرب فاكب على الدرس العلمى جامعاً ومتصفحاً طائفة كبيرة من النصوص غير المطبوعة التى لم يوفق إليها سواه كما راجع عشرات الترجمات اللاتينية القديمة التى ضاع الأصل العربى المنقولة عنه وأعاد النظر فى الأصول اليونانية والفارسية والهندية وكل علوم الأقدمين الذين أخذ عنهم العرب .

وبفضل انكبابه المنقطع النظير وتنقيبه المتواصل تكلل سعيه بالنجاح فأتحف العلم بثلاثة مجلدات ضخمة جاءت فى ١١٣١ صفحة من القطع الكبير يشتمل الأول منها وهو ثلثها على النص العربى للزيج الصابئى ويليه الجزء الثانى وهو ترجمة لاتينية للنص العربى مع شروح وتعليقات ومقدمة تاريخية تعرف الصابىء وتآليفه ومكانته بين فلكيى العرب . أما الثالث فيتضمن ترجمة جداول الكتاب باللغة اللاتينية مع فهارس مهمة ومعجم نفيس للمصطلحات الفلكية وشروح لاتينية للتعابير العربية، وفى نهاية الكتاب فهارس تهدى إلى كل مادة من مواده.

وكان من شأن هذا التأليف الذى أنفق المؤلف فى وضعه أعواماً عديدة أنه أتى بأبحاثه نوراً جديداً على علم الفلك وكشف عما بلغه العرب فى شرحه وجلائه وأظهر للملأ مقدرة ناشره العجيبة فى العربية وتفوقه فى شتى فروعها ومصطلحاتها العلمية القديمة والحديثة ، مما أكسبه شهرة واسعة فى عالم الاستشراق وأحله الذروة بين علماء الهيئة المعدودين .

ومما زاد فى شهرته فى هذا المضمار حادث جرى له مع زميله المستشرق السويسرى سوتر فقد اطلع على كتاب ألفه هذا وضمنه رأيه فى فلكيى العرب فكتب له بشأنه رسالة خاصة جاءت فى كراس كامل ضمنه ملحوظاته وتنقيحاته وشروحه وتفاسيره ، وبلغ من اهتمام العالم السويسرى برسالة زميله الايطالى أن أجلها لأهميتها التاريخية ونشرها كملحق لكتابه مما كان له أجل وقع فى الأوساط العلمية وعاد بالفخر على المستدرك والناشر معاً .

من أجل ما تقدم تسنم نلينو أعلى المراتب عند العلماء المحققين وأصبح مرجعاً يعتمد عليه فى كشف الغوامض وحل الرموز الفلكية .

— ٢ —

ولا بدع وهذا شأنه وخطره أن يعهد إليه بكتابة مقالات فى علم الفلك وأحكام النجوم لدائرتى معارف عالميتين هما الموسوعة الاسلامية التى تطبع فى هولاندا وموسوعة أخرى انكليزية .

على أن ما يعنينا مباشرة هو وقوع الاختيار عليه عام ١٩٠٩ لإلقاء الدروس فى الجامعة المصرية فى علم الفلك عند العرب وسواهم ممن تقدموهم ، فلبى طلبها وراح يحيى فى ذلك القطر العربى هذه الدروس التى كان من تفوق العرب فيها بعد أن أكسبتهم شهرة عالمية ولكنها لسوء الحظ أصبحت عند أحفادهم أثراً بعد عين .

واستفاض نالينو فى أبحاثه فى هذا العلم لا عند العرب فحسب بل عند الأقدمين الذين أخذ عنهم العرب كما أبان عما أخذه علماء القرون الوسطى بدورهم عن العرب . وبعد أن سرد تعريفات هذا العلم عند الأقدمين والمحدثين أخذ فى الفحص عن مصادر أخبار فلكيى العرب ومؤلفاتهم مبتدئاً بما كان يعرفه عرب الجاهلية عن السماء والنجوم وحساب النسيء ومنازل القمر وأنوائها . وتطرق إلى مبادىء علم الفلك عند الأمة الاسلامية وما كان من تأثير علم الفرس غيهم وما ورثوه عن اليونان والهنود وتعريبهم لكتبهم . وبعد هذه التوطئة أخذ فى ترجمة الذين اشتهروا من الفلكيين العرب وذكر تآليفهم التى وصلت إلينا وتلك التى عبثت بها أيدى الضياع وتوغل فى الفحص عن أهم مباحث علم الهيئة موضحاً رأى علماء العرب فى كل منها فشرح أقوالهم فى طبيعة الأفلاك والكواكب وأصل نورها الخ ، وأخيراً دار كلامه على علم أحكام النجوم مبيناً ما أخذه العرب عن أسلافهم وما اخترعوه هم أنفسهم ، وأورد المناقشات التى دارت رحاها بين المتكلمين والفقهاء والفلاسفة

والمنجمين فى تأييد هذا العلم أو بطلانه، فجمع هذه الدروس القيمة فى كتاب أتى فى ٣٧٠ صفحة، طبعه فى روما سنة ١٩١١، مع فهارس عامة وحواش وتعاليق جعلته تحفة من التحف. وقد تكرمت آخراً الآنسة كريمة الأستاذ الدكتورة ماربنا نالينو فأهدتنا بهذا الكتاب القيم فشكراً لها على هذه المنة.

وبلغ من ارتياح عمدة الجامعة المصرية إلى دروسه وأبحاثه أن جددت التعاقد معه دورتين أخريين حتى سنة ١٩١٣. ومما زاد فى دهشة ذوى الاطلاع تبريزه فى تاريخ علم الأدب عند العرب على وعورة مسالكه وخشونة مركبه لأجنبى، ناهيك بأنه كان إذ ذاك ممدوداً من اختصاص العلماء المصريين وحدهم فليس لأجنبى أن يقدم عليه وإلا تعرض لسهام النقد وأثار السخرية والهزء. ولكن مستشرقنا تغلب على كل هذه الصعوبات لأن عربيته كما قدمنا كانت سالمة من كل شائبة لفظاً ومبنى. وبدلا من أن يجرى على المألوف فيدرس الأدباء تبعاً لترتيب الحروف الأولى من أسمائهم نسق تاريخهم وقسمهم لما طرأ على علم الأدب من تطورات جوهرية فى عصوره الجاهلى والمخضرم والأموى والعباسى ودرس كلا من هذه الحقب مبيناً الخاصية الأدبية والفنية التى تميزت بها عن سابقتها ولاحقتها، متقصياً فى كل حقبة النتاج الفكرى الذى تفردت به نظماً ونثراً، مما أنزله فى الأوساط الأدبية منزلة لا ينازعه فيها منازع وجعله ذا أثر بين فى التقدم العجيب الذى أحرزته اللغة العربية فى الربع الأول من هذا القرن. ويكفينا للتدليل على صحة هذا الرأى أن كان بين تلامذته المعدودين الدكتور طه حسين بك زعيم المدرسة المصرية الحديثة فى التاريخ والآداب العربية والذى طالما اعترف بأنه مدين لأستاذه تاليتو بثقافته الأدبية ونضجه الفكرى.

أما البشرى السارة التى نزفها إلى القراء فهى أن هاتيك الدروس التى استقى الأستاذ نالينو مادتها من مخطوطات قديمة لقى صنوف العناء فى قراءتها واستجلائها واعتمد عليها فى مقام التدليل والاستشهاد إثباتاً لنظرياته واستنتاجاته أصبحت فى مأمن من الاندثار إذ ستضمها قريباً من مدافنها كريمته الدكتورة ماريا نالينو فى كتاب متقن الطبع يضم تعليقات وحواشى ضافية وفهارس عديدة. وهى قمينة بالاضطلاع بهذا العبء لأنها من أوسع الناس اطلاعا وأطولهم باعا فى هذه الأبحاث فى لغتنا واللغات الأجنبية جزاها الله خيراً وأبقاها خير خلف لخير سلف.

وللاستاذ نالينو عدا مؤلفاته الكبيرة مقالات عديدة نشرتها له المجلة الخديوية المصرية سنة ١٩٠٧ فى الجغرافية وأسماء الأمكنة فى البلاد، على الأخص ما وضعه من القواعد لنقل الأسماء العربية إلى الايطالية وكيفية التوصل إلى ضبط الأسماء الجغرافية فى طرابلس وبرقة وما كتبه من المقالات العلمية للموسوعة الايطالية. وقد امتاز فى كل ما كتبه بالتعمق فى الدرس وإيفاء الموضوع حقه من البحث والتنقيب كما كان بطبعه عدواً للمطروق والسطحى أفيلج العباب ويغوص على اللباب ويعود بكل مجهول طريف.

— ٣ —

وإذا انتقلنا من علوم الطبيعة إلى علم العقل نرى إنتاج نالينو فى هذا الحقل ينمو ويزداد. وإذا نظرنا إلى اللغة من مختلف نواحيها فصيحها وعاميها وبائدها، نرى نالينو قد امتلك ناصيتها وأخذ بأعنتها حتى ليكاد يلم بكل ما دق وخفى من قواعد صرفها ونحوها ولا يلتبس عليه أدنى صوت من مقاطع لهجاتها. وأصدق شاهد على قولنا هذا كتابه فى « العربية المتكلم بها فى مصر » الذى أصدر الطبعة الأولى منه سنة ١٩١٠ وأعاد طبعه سنة ١٩١٣. وبيت القصيد فى هذا الكتاب مقدمته التى لا تتأتى كتابة مثلها إلا لعربى متضلع من لغته إلى أبعد حد

ومثل ذلك يقال فى الملحوظات التى أوردها بشأن اللغة التونسية ونشرها فى مجلة الشرق الحديث الذى كان يصدرها باللغة الايطالية. وقد أسعفه على التقصى ما امتاز به من دقة حاسة السمع ومرانه الطويل فى رحلاته المتعددة إلى تلك البلاد.

وقد أولى الجاهلية عناية فائقة وكرس لبحثها وقتاً طويلا. ففى سنة ١٨٩٣ ظهر له وهو بمدفتى بحث مستفيض عن نظام القبائل العربية قبل الإسلام أبدى فيه من الرصانة فى الحكم إلى جنب البحث فى القبائل العربية وتاريخها وأساليب معيشتها وعلاقاتها الاجتماعية ما حدا بالأب لامنس اليسوعى المعترف له بالتفوق فى هذا المضمار إلى ذكر هذا الفتى بعد انقضاء عشرين عاماً على صدور مقاله.

ولهذا المستعرب أبحاث كثيرة لم تنشر؛ ولكن ما كان نصيبه النشر منها يثبت معرفته التامة بلغات جنوبي الجزيرة العربية وهي المعروفة بالحميرية التي تفرعت منها لهجات عديدة منها المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية الخ ، وجميعها تختلف عن العربية الفصحى كل الاختلاف . أما ما اتصل بنا منها فالفضل ببقائه عائد إلى النقوش التي عثر عليها في المغاور والصخور الكائنة على طريق القوافل القديمة. وقد بدأ المستشرقون منذ سنة ١٨٣٤ في قراءة حروفها وحل رموزها غير مبالين بالصعوبات التي تعترض سبيلهم لتعذر الوصول إليها . أما النصوص الحميرية التي نجدها في كتاب الإكليل للهمذاني فليست سوى نصوص مزيفة لفقها المؤلفون كابن وهب ومحمد الكلبي وابن هشام وتقتصر على بعض كلمات عربية إلى جنب كلمات حميرية قليلة اهتدوا إليها مما عثروا عليه من الآثار، وقد تناول نالينو هذه اللهجات البائدة وأثبت معرفته التامة بها في مقال طويل تناول فيه بالنقد والتحليل كتابا أصدره العالم الايطالي السيد كونتي روسيني باللاتينية عنوانه « مجموعة نصوص عربية جنوبية »

وعلاوة على أبحاثه في الكتب كان نالينو يتحف بعض المجلات العربية في مصر والشام بمقالات في اللغة والأدب ، منها مقالة نشرتها له مجلة الهلال سنة ١٩١٧ كانت من الجرأة الأدبية والأهمية العلمية بمكان وعنوانها « كيف نشأت اللغة العربية » انتهى فيها فيها إلى الاستنتاجات التالية :

إن اللغة العربية الفصحى هي بلا شك لغة الشعر الجاهلي المدون في كتب السلف . ومزية هذا الشعر أن ما فيه من أوصاف وتشابيه وأفكار ومعان يدل على أن مبتكريه هم الأعراب أهل الوبر، أخذه عنهم الحضر وقلدوه لغة وأسلوباً . ولما كان من الثابت أن معظم آداب الجاهلية انحصرت في القريض لزمنا القول إن العربية الفصحى كانت لهجة من لهجات هاتيك القبائل التي أخذ عنها الشعر والتي شد إليها الرواة فيما بعد الرحال وتلاهم النحاة الذين دونوا أصول اللغة وقواعدها لكي يأخذوا عنها صحة النطق وتقويم اللسان وتفسير الغريب وشواهد النحو ، وإذا أنعمنا النظر في تاريخ القبائل التي كان لها القدح المعلى في الشعر انتهينا إلى الجزم بأنها كانت القبائل المعدية المنضوية تحت لواء كندة قبل منتصف القرن الخامس . وكانت نهضة الشعر الجاهلي وبلوغه أوج الإجادة في عهد ملوك كندة الذين كان امرؤ القيس آخرهم ، وقد توفي بين ٥٣٠ و٥٤٠ ، وإذن فاللغة الفصحى مردودة إلى إحدى اللهجات النجدية وقد تهذبت في عهد الملكة الكندية ونقلت دون سواها من اللهجات وأصبحت لغة الأدب السائدة وبها نزل القرآن على محمد فأصبح مرجع العرب الديني والسياسي واللغوي .

وفي ثنايا هذا المقال يدعي زعيم الكبريين بأن قريشاً كانت أفصح العرب إذ في رأيه أنه لو صح هذا الزعم لأخذ الرواة والنحاة الشعر والنحو عن قريش وأهملوا عرب البادية . ولو كان التنزيل بلغة قريش لاعتمد الشراح أهل مكة في تفسير ما استغلق من غريب القرآن . زد على ذلك أن قريشاً لم ينبغ فيها شاعر مشهور ولا خطيب مذكور، فلا شك إذن في أن ما ذهب إليه الناس من القول بتفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب الرسول واعتبار تكريم قبيلته تكريماً له .

وغريب أن يتفرغ نالينو للكتابة في المجلات والجرائد إبان انصرافه إلى الدروس التحليلية وإلقاء المحاضرات في جامعتي مصر وروما ، وكانت محاضراته في الجامعة الأخيرة خاصة بتاريخ اليمن القديم وجاهلية بلاده مما ساعد كثيراً على فهم الاسلام ونشأته. وما من شك في أنه لو استطاع لنشر هاتيك المحاضرات القيمة وخلفها إرثاً ثميناً .

ومما زاد في مشاغله انكبابه الوقت الطويل على تنقيح مؤلف جاء في ثلاثة مجلدات ضخمة كان أصدرها المستشرق الايطالي ميكالي امارى وتناول فيها تاريخ مسلمي صقلية ، وقد عنى نالينو بضبط الأسماء والتواريخ وذكر المصادر من كتب مطبوعة ومخطوطة بحيث جاء ذلك الكتاب دليلا ساطعاً على سعة اطلاع هذين العالمين المستعربين .

ويقصر باعنا وعلمنا ويضيق بنا الوقت والمجال عن ذكر كل ما ألفه علماء الغرب وعلى الأخص نالينو مما لا عهد لصحافتنا وكتابنا بمعالجته وكله يتعلق بالاسلام. وقد نقب عليه في فقه اللغة وغريب اللغة والشرع الاسلامي والفرق الاسلامية ، قديمة كانت كالخوارج والشيعة والمعتزلة والقدرية ، أو حديثة كالوهابية. وعلى

هذه الصورة من المتانة فى التعبير والدقة فى البحث جاء ما كتبه عن المتصوفة فى الاسلام وأشعار ابن الفارض والرئيس ابن سينا فى الحب الإلهى والفروق التى تفصلها عن متصوفة اليونان المشركين .

— ٤ —

وظل نالينو منذ نشأته معنياً بشؤون الشرق، قديمها وحديثها حتى تنبهت ايطاليا إلى ما للشؤون الشرقية والاسلامية من الأهمية فى ساسة الدولة ، وكان ذلك على أثر خروجها من الحرب العالمية الأولى فأنشأ (اماديو جانيني) فى روما معهد الشرق وعهد إلى نالينو بادارته العلمية . وكان فى جملة مقررات المعهد إنشاء مجلة شهرية بعنوان «الشرق الحديث» تبحث فى الشؤون السياسية والاقتصادية التى تتعلق بالمشرق الاسلامي فقام نالينو بالمهمة التى أسندت إليه خير قيام . وكان فى الوقت نفسه يشرف على المجلة ويتعهدها بقلمه ويودعها من الأبحاث كل طريف مفيد . وعلى كثرة مشاغله لم يكن يهمل مطالعة كل ما يرد عليه من المجلات والجرائد والمنشورات المعربية على اختلافها ويستفيد مما يطالعه أبحاثاً للمجلة التى لا تزال توالى الصدور بعد أن أفل نجم منشئها المتوقد .

ويجمل بنا ذكر المكتبة النفيسة التى أنشأها هذا العالم العامل وأودعها كل ما عثر عليه واستطاع اقتناءه من الآثار الأدبية والعلمية فى البلدان العربية التى زارها وكل ما صدر فى اوروبا من كتب الاستشراق حتى أصبحت أغنى مكتبة خاصة بالمختار من الكتب النادرة . والغريب انه بدأ بجمعها وهو بعد فتى رقيق الحال قليل المال وزادها أضعافا بعد أن أصبح فى يسر وإقبال .

وبلغ من شهرته العالمية أنه انتخب عضواً فى الجمعية الملكية الأسيوية فى لندن والجمعية الألمانية المضارعة لها ، وهو شرف رفيع نادر لم يظفر به سوى فطاحل العلماء . أما فى الشرق فقد عرفت له جمعياتنا العلمية مكانته وضمته إلى سلكها ابتداء بالجمعية الملكية المصرية سنة ١٩٣٢ كما أصبح من الأعضاء العاملين فى مجمعى دمشق وبغداد وفى سنة ١٩٣٨ أم البلاد السعودية فاستقبل فيها بالاكرام والاجلال وطاف بها من العقبة حتى الطائف تصحبه كريمته الآنسة ماريا غير عابئة بقطع القفار وتجشم الاخطار . وبهذه الرحلة تمت له أمنية طالما راودته وكان اغتباطه عظيما بتغذيته بصره وتشنيفه سمعه بما وعاه ذهنه من أوصاف تلك البلاد وما كتبه بشأنها من أبحاث وألقاه من دروس فعاش مع أهلها عيشة البداوة واطلع على عاداتهم وسمع لهجاتهم وإنشادهم الشعر فى سمرهم وهم يصطلون فى خيامهم السود أو متكئون حلقات على بساط من الرمال . وهناك استعاد إلى ذهنه الحوادث الجسام والانقلابات التاريخية التى مثلت فى ماعبر على مسرح تلك الجزيرة المترامية فطوت الأيام الحوادث والرجال وبقى المسرح شاغراً لتحتله فرق جديدة تمثل عليه أدواراً ترمز إلى عصر جديد .

***

وكانت أمنيته الثانية بعد عودته أن يصف تلك البلاد وصف شاهد عيان ويقيم المقابلة بين ما عرفه من ماضيها وما خبره من حاضرها ولكن شاءت الأقدار أن يكون تسليمه عليها وداعاً وأن تكون آخر بقعة أمها ولم يمهله ربها ليستمتع بذكرياتها فى خلواته ويدون بشأنها معلوماته فذهب فى سنة ١٩٣٨ مذكوراً بمآثره الغر مأسوفاً عليه من كل من عرف فضله ونهل من ينبوع علمه الفياض ليتلألأ كنجم ساطع فى سماء النبل والفضل وينعم بالخلود .

العصبة الأندلسية — يوسف الخوري

المراجع التى أخذنا عنها :

ميكالانجلو غويدى : كارلو الفونسو نالينو : فى مجلة الأبحاث الشرقية التى تصدرها مدرسة الدروس الشرقية فى كلية رومية . سنة ١٩٣٩

ج . ليفى دلا فيدا : كارلو الفونسو نالينو : مقالة ضافية نشرت فى آخر الجزء السادس من مجموعة تآليف نالينو . رومية ١٩٤٨

كارلو ناللينو : مجموعة تآليفه التى نشرت والتى لم تنشر ٦٠ مجلدات رومية ١٩٣٨ — ١٩٤٨

كارلو ناللينو : الزيج الصابئى للبتانى ج ٣ . رومية ١٨٩٩ — ١٩٠٧

كارلو ناللينو . علم الفلك . تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى . رومية سنة ١٩١١

كارلو ناللينو : عدة مقالات متفرقة فى الهلال ومجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق .